

غفور رحيم.. لكنّه شديد العقاب



مـرجاء

«اللَّهُمَّ لا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي فَأَعْجزَ عَنْهَا. ولا إِلَى النَّاسِ فَيُظْفِرُوا بِي. ولا تُخَيِّبْنِي وَأَنَا أَرْجوكَ. ولا تُعَذِّبْنِي وَأَنَا أَدْعوكَ».

ميزان خاطيء

كثيراً ما يَتَمَتَّرُ المقيمون على معصية ما، خاصة إذا كانت مُعلَنةً أو مجاهراً بها.. بقولهم:
إنَّ الله غفورٌ رحيم!

وهم بذلك يتهاونون فيما يفعلونه، بل ربّما يُبرِّرونه، بل ربّما يُؤكِّدون عدم توبتهم أو أنَّهُم يتمادون في ما هم عليه! ولو أنصف هؤلاء أنفُسهم، وكانوا صادقين، لذكروا أنَّ الله شديد عقاب أيضاً، إلى جانب أنَّه غفورٌ رحيم.

قال الله تعالى: ﴿إِذْ عَلِمُوا أَنَّهُ لَآتٍ بِهِمْ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّهُ لَآتٍ بِهِمْ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (المائدة/ 98). فإلى متى يبقى الاستخفاف والتبرير شائعين، اتِّكالا على «بعض الكتاب» وإغفالا «للبعض الآخر»؟ فكما أنَّ الشاهد سبحانه هو الحاكم، كذلك الغفور الرحيم هو شديد العقاب.

إنَّ بعض الناس يُصيبهم الغرور فيظنُّون أنَّهم مهما فعلوا من المعاصي، فإنَّ عفو الله ينتظرهم، فيتمادون فيما هم عليه، ويتحرُّون تبريرات واهية وحججاً باطلة، ويستخفُّون بالموعظة والوعيد. حتى يُدركهم الأجل الذي لا بدَّ مدركهم بغتة وهم لا يشعرون. وساعتئذٍ لن يجدوا إلا ما قدَّموا، ولن يصدوا إلا ما زرعوا.. فتكون ﴿أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ أَلْفَ عَذَابٍ فَوُفِّيَهُ حَسَابَهُ وَآلُ سَرِيعِ الْحِسَابِ﴾ (النور/ 39). هؤلاء النَّاسُ الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا

غضبه لا يمنع رحمته، ورحمته لا تمنع غضبه

عدالة (عز وجل)، التي تؤمن بها، تعني لنا: أن ربنا لا يظلم أحداً. فهو سبحانه جعل نتيجة موازية وحسيلة آتية لكل فعل، فالحلال وراءه حساب، والحرام وراءه عقاب، فهو تعالى يرضى عند الطاعة، ولا يُنتظر منه غير ذلك، ويغضب عند المعصية، ولا يُنتظر منه غير ذلك. قال تعالى: ﴿لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ (فصلت/ 43). وقال جلّ جلاله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (الأعراف/ 167).

والمنصف المتأمل يرى أن عقابه سبحانه عدل ورحمة ورأفة بالعباد كي لا ينقادوا في ما يُجلب الذم. قال أمير المؤمنين علي (ع): «إنّ (ع) سبحانه وضع الثواب على طاعته، والعقاب على معصيته، زيادة (منعاً لهم عن المعاصي) لعباده عن نقمته، وحياشة لهم إلى جذّته (جاءه من كلّ جانب ليسوقه إلى الجذّة)» [1]. وورد أيضاً في صفاته جلّ في ملكه: «لا يشغله غضب عن رحمة، ولا تؤليه رحمة عن عقاب» [2].

سبحانه وتعالى، غضبه لا يمنع رحمة، ورحمته لا تحجب غضباً

سبعة عشرة مرّة! سيقول قائل: لا تُقنطوا الناس من رحمة الله، ونقول له: وصلنا إلى مرحلة بأن فيها الكثيرون من غضب الله تعالى فيتجاهرون بل يتفاخر بالإصرار، متناسياً أن غضب الله سبحانه هو عدل رحمته، فكما لا يجوز تبئيس الناس، كذلك لا يجوز إغراؤهم.

تبقى معلومة يجب أن تُعلم وتُنشر: هل نعلم أنّه ذُكر في القرآن الكريم أنّ الله سبحانه ﴿شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (الأنفال/ 13) و﴿سَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ (الأنعام/ 165) و﴿ذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ (فصلت/ 43) حوالي سبعة عشرة مرّة؟!

هذا عدا عن صيغ مختلفة تُناسب المضمون، من قبيل ﴿فَخَقَّ عِقَابُ﴾ (ص/ 14) و﴿فَأَخَذَتْهُمُ فَكَيِّفَ كَانَ عِقَابُ﴾ (غافر/ 5).

التجرؤ على الله سبحانه

أصبحت لدينا طبقة تتجرّأ على الله سبحانه في إقدامها على المعاصي، وبعضها يقوم بذلك في مناسبات أو ستار ديني، «ومَن أصرَّ على ذنبه اجتراً على سخط ربّه» [3].

والتجرؤ هو من الوقاحة المستوجبة للغضب الإلهي، وأمّا المُشفق الخائف، فهو الذي يرجو رحمة ربّه. فتعالى الله من قوي ما أحلمه، واغترَّ عبدٌ فقيرٌ من ضعيفٍ ما أجرأه!

وأثناء كتابة هذه الكلمات نقلت جريدة «الأخبار» في 5/10/2007 عن أحد النواب الأمريكيين عن ولاية «نيبراسكا»، نقلت مطالبته بمحاكمة «الله» (نعوذ بالله من غضبه) مُحمّلاً إياه مسؤولية الإرهاب والفيضانات والأعاصير والزلازل والجوع وقتل الملايين!!!

إلى هذا المستوى وصلت الوقاحة والجرأة في زمن التقدّم والحضارة!

العقوبة

فمعنى العقوبة والمعاقبة يختص بالعذاب، وأصلها في المعنى «العقِب» وهو مؤخَّر الرَّجُل.

وعقِب الشيء، وعاقبة الأمر، ما يلي من آخره. و«التعقيب» هو الإتيان بشيء بعد شيء، كتعقيبات الصلاة مثلاً. «ومعاقبة الغير» أن تأتي بما يسوؤه بعد أن أتى أو فعل أو قال ما يسوؤك، فهي المجازاة والمكافأة بالعذاب، أو إذا شئت قُلْ هي معاملة بالمثل.

قال [ربِّي جلَّ جلاله:] [وَإِنَّ عَاقِبَتَكُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ] (النحل/ 126). فما من عقاب توعَّد به [سبحانه عباده] إلا نتيجة سوء صدر عنهم، فخيرهم عزَّ وجلَّ نازل، وشرُّنا إليه صاعد.

ولا يكون العقاب لأهل الطاعة والخير. وأمَّا أهل الضلال والانحراف من أهل الدنيا الذين يتوعدَّون في غفلتهم، ويستغرقون في المعاصي والذنوب، بظنِّهم أنَّهُم ينالون جاهاً وعزَّةً.. فهؤلاء لا يُقيمون وزناً إلا لحطام الدنيا الزائل، ولا يُؤمنون بالوعد والوعيد وأخبار النبوة من البعث والحساب والجنة والنار.

إنَّ هذه النوعية من البشر، هي نوعية مغرورة بما يُعامل به الإنسان على غفلته وظلمه. قال [سبحانه:] [يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ الْغُرُورُ] (فاطر/ 5).

ومن جملة الغرور الذي يحسن بالمؤمن الفطن التنبُّه منه واجتنابه، اعتقاده بالعفو والرحمة دون غيره، فيأخذ بالرجاء ويُهمل الخوف، مع أنَّ الإيمان لا يكتمل إلا بهما .

ورد في دعاء الافتتاح: «وأيقنت أنَّك أنتَ أرحم الراحمين في موضع العفو والرحمة، وأشدُّ المعاقبين في موضع الذِّكَّال والذِّقمة...».

وهو العفوُّ الغفور

وأمَّا عفو [عزَّ وجلَّ] وتجاوزه عن الخطيئة وصفحه عن الظلم وستره على قبيح العمل وحلمه عن كثير الجرم وتعمُّد الخطأ.. كلَّ هذا لا ينبغي أن يكون سبباً للطمع والتمادي. وكذلك تحبُّب [عزَّ وجلَّ] وتودُّدِه لا يجوز أن يُقابل بالتباعد والاستعلاء معاني وردت في دعاء الافتتاح.. سبحانه هو ربِّي الكريم «لا يزداد على كثرة الذنوب إلا عفواً وصفحاً». هذا هو وهذا شأنه وهذا قدسه سبحانه الغني الذي ليس فوقه إلهٌ يُخشى، وليس دونه مَلَكٌ يُتَّقى، وليس له وزيرٌ يُؤْتى، وليس له حاجبٌ يُرْشى، ولا يزداد على كثرة السؤال إلا كرماً وجوداً من الدعاء. بعد صلاة فاطمة (ع) في مفاتيح الجنان، ص79.

سبحانه هو العوَّاد على الخطَّائين بعد عكوفهم على المحارم، وجود عليهم بالعفو والمغفرة.

لمن تكون الرحمة؟

الرحمة الإلهية التي تشمل المؤمن والكافر، المتدين وغيره، المطيع وغيره.. إنَّما هي سُبُل رحمة [سبحانه التي يُبَيِّنُها للعباد جميعاً لِيَدْلَجُوا بها] (وهي جملة الطاعات والقربات.. وبديهي أن لا تكون المحرِّمات والمنكرات). وقد يفعلون وقد لا يفعلون، بل قد يُخالفون، بل قد يمتطون الموبقات ولا يتوبون.. فكيف لهؤلاء أن يتكلَّموا عن ضمانهم للرحمة ولم يسلكوا مسالكها؟!

كلَّ هذا بالنسبة «للرحمن».. أمَّا «الرحيم» فهي تبيان سبيل الرحمة الخاصة بالمؤمن لسعادة

آخرتهم ولقاء ربهم.

فهل راكب المنكر والقائم على الحرام والمُغضب لربه تعالى والمتهاون بحقه والمتجاهر بذلك.. والمتحدّي، أو المستنكف عن الأوبة والهارب من التوبة.. والمستخف بعقاب الله عز وجل.. هل هذا ممّن يعدّ نفسه بأثار وبركات «الرحيمية» الإلهية؟

قال الله عز وجل: ﴿وَرَحِمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَاسْتَكَتِبُهَا لِيَلْذَرِينَ يَتَتَّقُونِ﴾ (الأعراف/ 156). فسِعَتْها لكلّ شيء، بمعنى إظهارها وتبيانها، بداهة أن تُتَّبَعَ وتُسلَك ليحصل الفوز. وأمّا المتقون الذين ستُكتب لهم، فلهم طُرُقهم ومناهجهم في الحياة، ومن أبسطها، اجتناب معصية الله عز وجل. ثمّ بعد كلّ هذا، صحيح لقائل أن يقول: إنّ الله غفورٌ رحيم.

سبحانك اللهم وبحمدك.. بتوفيقك يفوز الفائزون، ويتوب التائبون، ويعبدك العابدون، ويتسديك يصلح الصالحون المحسنون المخبِتون، العابدون لك، الخائفون منك.. وبخذلانك خسر المبطلون وهلك الظالمون، وغفل الغافلون. نعوذ بالله تعالى من الخسارة والظلم والغفلة. ﴿لَوْ يُوَافِقُكُمْ بِمَا كَسَبْتُمْ أَلَعَجَلَكُمْ لَهُمُ الْعَذَابُ بَلْ لَهُمُ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا﴾ * وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلُكَ نَاهُكُمْ لِمَا ظَلَمْتُمْ لِمَا ظَلَمْتُمْ وَأَجْعَلْنَا لِمَهُمْ لِيَكْفَهُمْ مَوْعِدًا ﴿ (الكهف/ 58-59).

الطريق إلى العفو والمغفرة

والمقصود بالعفو الذي يُنسب إلى الله تعالى، هو أخذ ما عند العبد من ذنب، وتركه بلا ذنب. وأمّا المغفرة (وهو الستر)، فبعد أخذ الذنب، يُستر عليه فلا يظهر ذنب المذنّب، لا عن نفسه ولا عن غيره[4].

قال الله عز وجل: ﴿وَأَعْفُ عَنَّا وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا﴾ (البقرة/ 286). وقال سبحانه: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا غَفُورًا﴾ (النساء/ 99).

ومن أراد نيل العفو الإلهي والمغفرة، لا مفرّ له من التقرُّب والذلّ، تعقبها التوبة وعتاب النفس والمؤاخاة، وليُعرض عن الانحراف. قال الله سبحانه: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ اللهُ سَبِيلَهُ﴾ (التغابن/ 11). فلا بدّ من المبادرة من العبد لإزالة المانع ورفع المناهي لينال العفو والمغفرة.

فالشّرك موت والمعاصي ظلمات ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ طُلُومَاتٍ بِعَعَصِهَا فَوْقَ بَعَصٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلْ لِنُورٍ لَمْ يَكُنْ لَهُ نُورٌ فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾ (النور/ 40).

فَمَنْ لَمْ يَسْلُكْ مَسْلَكَ التائبين المعتذرين، لا حياة له ولا نور، والمؤمن المغفور له، له حياة ونور بفضل سلوك طريق المغفرة. قال الله سبحانه: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاعْفِرْ لَنَا﴾ (التحریم/ 8).

فهل يستوي المؤمنون الملتزمون مع غيرهم؟ وهل التائبون كغيرهم؟ وهل المعتذرون كغيرهم؟

وهل أهل الإصرار والاعتداد، الغافلون عن الله سبحانه تعالى شديد العقاب.. هل يُعتَبَرُونَ كغيرهم؟!

الأکید أنّ هؤلاء ليسوا كهؤلاء.. لا يستوون.

﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا﴾ 23 ؟!

هل الذي ينال الرضى الإلهي، كغيره من الغافلين المتكبرين؟

﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأُحْيِيَئَنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النُّجُاسِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأنعام / 122).

وبعد كل هذا، بات واضحاً أين هي طريق العفو والمغفرة. ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ (الكهف / 57).

سبيل رحمة الله تعالى

مَنْ رَجَى رَحْمَةَ اللهِ وَطَمَعَ بِهَا، سَعَى إِلَيْهَا بِمَا يَوْجِبُهَا لِيَفُوزَ بِهَا. قال أمير المؤمنين في وصية له طويلة عن أنَّ المتكبرين لا ينالون أجر المتواضعين... إلى أن يقول وكقاعدة عامَّة: «وإنَّما المرءُ مَجْزِيٌّ بِمَا أَسْلَفَ، وقادم على ما قَدَّمَ» [5]. أمَّا صاحب الرجاء الكاذب فقد «كذب، والله العظيم، ما باله لا يتبَيَّن رجاؤه في عمله؟!» [6]. والعجب أن لا يظهر هذا الرجاء في مُنْذَرِهِ، والأعجب أنَّهُ «إنَّه هو خاف عبداً من عبده، أعطاه من خوفه ما يُعْطِي رَبَّهُ، فجعل خوفه من العباد نقداً، وخوفه من خالقه ضماراً ووعداً» (ما لا يُرْجَى تحصيله من الوعود والديون) [7].

المؤمن الحق بين الخوف والرجاء

المؤمن الصادق هو المتفكِّر دائماً بما مضى من عمل، وبما يأتي، فهو على حذر دائم من انقضاء عمره دون أن يترك أثراً صالحاً وتوبة نصوحة. فهو «لا يُصبح إلا خائفاً، وإن كان مُحسناً، ولا يُمسي إلا خائفاً، وإن كان مُحسناً، لأنَّه بين أمرين: بين وقت قد مضى، لا يدري ما الله صانعٌ به، وبين أجل قد اقترب لا يدري ما يُصِيبه من الهلكات» [8]. وهو، وإنَّ اتَّكَل على سعة رحمة الله، فعمل قليلاً، إلا أنَّه لو علم قدر غضب الله لظنَّ بأن لا ينجو مضمون حديث شريف.

وعن الإمام الباقر (ع): «إنَّه ليس من عبد مؤمن إلا وفي قلبه نوران: نور خيفة، ونور رجاء، لو وُزِنَ هذا لم يزد على هذا، ولو وُزِنَ هذا لم يزد على هذا» [9]. فهو في خوفه كالمشرف على النِّار، وفي رجائه كأنَّه بات من أهل الجنة مضمون حديث عن الإمام الصادق (ع)

وبكلمة واحدة لكل ما تقدَّم، هي قوله سبحانه: ﴿يَذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ (الزُّمَر / 9). ►

[1] - نهج البلاغة، الحكمة 368.

[2] - المصدر نفسه، الخطبة 195.

[3] - ميزان الحكمة ، محمدّ الري شهري، ج3، رقم الحديث5268.

[4] - تفسير الميزان، الطباطبائي، ج4، ص54.

[5] - نهج البلاغة ، كتاب21.

[6] - المصدر نفسه ، الخطبة160.

[7] - المصدر نفسه .

[8] - بحار الأنوار، العلاّمة المجلسي، ج70، ص382.

[9] - الكافي الشريف، ج2، ص67.